

## قتل الكتب والمكتبات جريمة ضد الإنسانية جمعاء

د. قوميد فتيحة

جامعة وهران احمد بن بلة 1

د. جبران خليل ناصر

جامعة وهران احمد بن بلة 1

- مقدمة:

يقول المولى عز وجل: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا" (سورة الإنسان آية 78). كان هذا قبل أن يظهر إنسان وادي الرافدين فصدحت قيثارته بلحن الوجود. ومن ثم غير وجه الأرض بابتداعه الكتابة التي صارت أساس الحضارة الإنسانية، فنقش ميراثها على ألواح الفخار فحفظت سجلاتهم ووثائقهم في المعابد والقصور. وكانت إيدانا بتشكيل اولى المكتبات الفعلية، والتي اطلق عليها (بيت اللوحات) لتحتضن الإنتاج الفكري الذي ترعرع في مناخ سياسي مستقر واقتصاد قوي مزدهر، وبيئة علمية وثقافية متفوقة بمقاييس عصرها. فكانت بدورها منفذا رئيسيا للأمم أخرى تقتدي بها وتبني علمها، عبر الممرات الطبيعية بين قارات العالم القديم: بين حضارات ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد فارس والإغريق.

غير أن اليد التي ابدعت وقدمت كل هذا الميراث الحضاري لم تسلم من نزعات نفوس شريرة، عمدت في كثير من الأوقات - حين سنحت لها فرصة التوسع والاستعمار- أن تستلب الكثير من آثارها التاريخية وجعلت من نفسها وصيا على التاريخ الحضاري لتلك الأمم المغلوبة. فاستأثرت بتلك الآثار حين نقلتها إلى بلدانها، وسجنتها في متاحفها: فمسلة حمورابي وفيها تشريعاته القانونية صارت في متحف اللوفر بباريس. ومكتبة آشور بانيبال في المتحف البريطاني بلندن ولوحات مكتبات أور المسماوية في المتحف البريطاني، وفي متحف جامعة فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا) في الولايات المتحدة الأمريكية، والأمثلة كثيرة.

ليأتي الدور على الكتاب والتاريخ التراجيدي وعلاقته بالإنسان، بدءا من سرقة الألواح السومرية وتهشيمها، حتى النهب المروع لمكتبات العراق بعد احتلاله في

سنة 2003. فأُسيط اللثام عن قتلّة الفكر وانحطاط سلوكهم. وانكشفت الدوافع الخفية وراء تدمير الكتب والمكتبات ومراكز الثقافة. إذ يعتقد أعداء الحضارة إن حرق كتب الآخرين وتدمير ثقافتهم المختلفة شعيرة للتطهير، وتكريس محو الآخر. وبهذا التدمير يظهر لنا هؤلاء الغزاة نزعات كامنة في أعماق شخصيتهم، ترى أن القوة الخالدة للكتب تكمن في كونها مستودعا للمعرفة البشرية وذاكرتها. وهكذا يصبح تدمير كتب الآخرين ممن نخلف معهم أو حتى الذين لا نفهمهم، تعبيرا عن إلغاء ذاكرتهم، ومحاولة محو سيرتهم من التاريخ.

### 1- لمحة تاريخية موجزة عن تدمير الكتب والمكتبات:

إذا عدنا إلى ما ورد في كتب التاريخ عن تدمير المكتبات فهو فعل تواصل على مر العصور. ظهر مدمرو المكتبات(\*) بالتزامن مع ظهور الكتب نفسها، وظلوا يتوالدون مع تكاثر الكتب: بقدر ما تزداد كميتها، يزداد السعي إلى تدميرها. وسواء اعتبرت المكتبة «مخلة بالنظام أو على العكس: رمز النظام، فهي دائما تتوسط الأزمات والمواجهات؛ لكنها في غالب الأحيان، لا تعيش بعدها.

قبل التطرق إلى تاريخ تدمير الكتب لا بد من ذكر الأسباب التي تؤدي بالمجتمعات أو بالأفراد إلى تدمير الكتب والمكتبات فقد أوجزها مؤلف كتاب حرق الكتب في التراث العربي الإسلامي إلى ستة أسباب: فقد تكون شرعية، أو علمية أو سياسية، اجتماعية أو قبلية، نفسية أو تعصبية. كذلك تعددت طرق اتلاف الكتب فقد يتم تدميرها إما بالحرق، أو بالدفن، بالغسل بالماء أو الإغراق وتارة أخرى كان تتلف الكتب إما بالتقطيع أو التخريق.<sup>(1)</sup>

تاريخ تدمير المكتبات قديم قدم وجود الكتب والمكتبات حيث أشارت الدراسات التاريخية إلى أن من أقدم ما دمر من مكتبات يعود إلى سنة 625 قبل الميلاد، حيث تم تدمير مكتبة الملك آشور نينبال جراء عوامل الزمن. اكتشف البريطانيون بقايا هذه المكتبة سنة 1860؛ وقد لاحظ المكتشفون وجود رقما طينية، وأرسلوا جزءا منها إلى المتحف البريطاني في لندن حيث دهش القيمين على المتحف عندما رأوا أن هذه الرقائم نصوصا بالغة الأهمية، من بينها: ملحمة جلجامش، وقصة الخليقة، وأسطورة أدايا، الإنسان الأول. وتبين لهم أن آشور نينبال هو الذي كان يجمع بنفسه هذه الرقم وينظمها، ويعيد كتابتها.<sup>(2)</sup>

إن تدمير المكتبات بدأ في مصر، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مع أخناتون. فعندما تسلم العرش دمر في طيبة النصوص السابقة القديمة. وكان دافعه إلى ذلك سياسيا، من أجل أن ينشر فكرة الوجدانية، أو فكرة الإله الواحد. وهكذا دمر النصوص التي تشكل مرجعا للمنظومات الفكرية غير الوجدانية.<sup>(3)</sup>

التاريخ حافل بالصور والنماذج عن حرق الكتب والمكتبات فمثلا حرق مكتبة الإسكندرية على أيدي العرب المسلمين، أو على أيدي غيرهم؛ من الأمور التي شغلت بال العديد من الباحثين فقد تناول أ.د. جاء بالله هذا الموضوع بالقول: "ولا ريب أن الأمم لا تترك إلى رفض الآخر ثقافة وفكرا إلا في لحظات الوهن في تاريخها. ولنا مثالا في فهارس ابن النديم والطوسي والإشبيلي فضلا عن طبقات ابن أبي أصيبعة ما يشير في جلاء إلى أن العربي عرف - يوم كالم - عاملا - كيف يأخذ عن الدنيا في غير وجل وكيف يجزل لها العطاء في غير من... أما يوم عظمت في عينه الصغائر فإنه ابتدع عقيدة الانطواء على الذات وفضيلة الاكتفاء بالمتاح. ثم أوجد في تاريخه ما يبرر به قعود همته مثل أسطورة حرق مكتبة الإسكندرية. "أما توينبي فهو لم يتوقف عندها طويلا واعتبرها مجرد "أسطورة" على معنى الخبر الزائف في عرف المؤرخين"<sup>(4)</sup> هذا فيما يتعلق بتدمير مكتبة الإسكندرية.

قد شهدت مكتبة سابور التي أسست في عام 381 هـ في مدينة بغداد مصيرا مأساويا لا يقل فظاعة عما جرى لمكتبة الاسكندرية. وقيل: إن (مكتبة سابور) تنسب إلى مؤسسها أبو نصير سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهية. وقد ذكرها المؤرخون تحت أسماء مختلفة. فذكرها ابن الأثير تحت اسم (خزانة الكتب) وذكرها أبو العلاء المعري، وياقوت الحموي تحت اسم (دار العلم)<sup>(5)</sup>. وقد استمرت المكتبة تقدم خدماتها للجميع طوال سبعين سنة، ثم أحرقت عند مجيء الملك طغرل بك<sup>(6)</sup> في سنة 450 هـ.

أما مكتبة بغداد أو بيت الحكمة التي أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد ، ثم ازدهرت المكتبة في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة 198 هـ إلى سنة 218 هـ. ولم تكن تؤدي هذه المكتبة فقط دورها كمكتبة عادية، بل كانت تنشط فيها حركة الترجمة والنسخ. كان يقصدها طلبة العلم من كل مكان. لكن بعد غزو هولاءكو لبغداد عام 656 هـ<sup>(6)</sup> تم تدميرها؛ مما جعل المؤرخ العريق ابن الأثير

صاحب كتاب "الكامل في التاريخ" يقول: "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فكنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أُمي لم تلدني، وياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً".<sup>(7)</sup>

لم يكن مصير دار العلم بالقاهرة أفضل من مصير بيت الحكمة في بغداد، حيث كانت تعد أضخم مكتبة عرفها التاريخ الإسلامي. وقد أسس المكتبة الخليفة العزيز بالله الفاطمي في قصره، ثم بنى ابنه الحاكم بأمر الله مبنى خاصاً للمكتبة في عام 395 هـ بجوار القصر. لقد تعرضت مكتبة القصر الفاطمي ومكتبة دار العلم لأزمات كثيرة أضاعت الكثير من ذخائرها؛ فأولها كانت الأزمة الاقتصادية والسياسية في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عندما استولى الجند الأتراك على زمام الأمور في مصر عام 461 هـ، وانتهبوا 18000 مجلد من العلوم القديمة؛ بالإضافة إلى 2400 مخطوطة للقرآن بزخرفات ذهبية وفضية، وأقتسم الوزير أبي الفرج محمد ابن جعفر والوزير السابق الخطير بن الموفق كتعويض مقابل خدماتهما وأموال موظفيهما<sup>(8)</sup>، من أبشع ما قام به هؤلاء هو جعلهم لجلود الكتب الجليلة النادرة أحذية لخدمهم وجواربهم وحرقوا الأوراق؛ بحجة أنها تضمنت عقائد دينية إسماعيلية؛ مما يناقض معتقداتهم، وشكل الرماد تلالاً عظيمة في منطقة الأبيار، التي لا تزال حتى اليوم تدعى بتلال الكتب، كما رمي كثير منها في النهر، أو اتلف سوى قليل حمل إلى سائر الأمصار<sup>(8)</sup>.

وبذلك يبدو ان الغاية من حرق الكتب والمكتبات هو اخفاء الكثير من الحقائق التاريخية وهو ما اشار اليه جورجى زيدان بالقول: "ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه ، فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرها".<sup>(9)</sup>

كما أن (Lucien X. Polastron) يشير إلى أن تدمير الكتب في الصين بدأ في السنة 213 ، وكان عملاً سياسياً محضاً قام به الإمبراطور (كن)، باسم "توحيد" الصين، بناء على نصيحة مستشاره (لي سي) الذي قال له: "العودة إلى الماضي ضعف"، فأجابه: "إنا، علينا أن نمحو الماضي". أما في أوروبا ففيه فهو يتحدث عن عهد "محاكم التفتيش" في إسبانيا، وكيف كانت تحرق الكتب العربية والعبرية.

وكيف أن إسبانيا، بعد أن طردت العرب واليهود، صدرت "التعصب" إلى "العالم الجديد"، وكيف أن هذا العالم دمر كليا كتب الآزتيك والمايا. ويفتخر لاس كازاس<sup>(9)</sup> بهذا التدمير قائلاً: "إنني فخور بتدمير كتبهم كلها." ويقول أيضا (Lucien X. Polastron) أن ملايين الكتب تعفنت إبان الثورة الفرنسية. وكان الثوار يستخدمون ورقها خرطوشا للمدافع. وفي عهد "الكومونة"<sup>(10)</sup>، أحرقت المكتبات الكبرى كلها، وبينها مكتبة اللوفر، باستثناء المكتبة الوطنية.

لم يتوقف مسلسل تدمير الكتب والمؤسسات الوثائقية: ففي عام 1814 تم حرق مكتبة الكونجرس الأمريكية بصورة متعمدة من طرف البريطانيين<sup>(10)</sup>. ويتحدث المؤلف كذلك عن العصر الحديث - عن هتلر، وستالين، - وعن الجرائم الضخمة التي ارتكبت في هذا المجال. إن تدمير الكتب في الحرب العالمية الثانية، كان له آثار وخيمة على الكتب، كما تم حرق عشرين ألف نسخة في برلين في ساحة الأوبرا في 10 ماي 1933 من قبل مجموعة من الطلبة الألمان<sup>(11)</sup>.

كما أن احراق مكتبة جامعة الجزائر من قبل المنظمة السرية للجيش الفرنسي (OAS) في 07 جوان 1962 أياما قلائل قبل الإعلان عن الاستقلال. هي جريمة ارتكبت ضد العلم والثقافة ومستقبل الشباب الجزائري. أتى احراق المكتبة على ما يقارب 400.000 كتاب ومخطوط من مجموع 600.000 عنوان إلى جانب تخريب المكتبة ومخابر العلوم ومدرجين. وتم تحويل حوالي 200.000 كتاب بعد عملية الإنقاذ إلى ثانوية عقبة بن نافع بالعاصمة والتي أعيدت بعد عامين إلى مكتبة الجامعة. وهناك عشرات الحوادث المماثلة التي يصعب حصرها في هذا المقال<sup>(12)</sup>.

## 2- مظاهر ونماذج عن تدمير الثقافة العراقية:

كانت لحرب الخليج أضرارا بالغة على التراث العراقي. حيث ندد البروفيسور جيبسون، الذي ترأس عمليات التنقيب في العراق منذ عام 1964، بأول تفجير في "حرب الخليج" كان على عجائب الهندسة المعمارية بالعالم، مثل زقورة أور (2100) قبل الميلاد، كما أصيبت المعالم التاريخية بهذا الموقع الاثري بأربعة مئة من القذائف، كما ان الجيش العراقي الذي قد قام بتثبيت طائرات بالقرب من مسقط رأس إبراهيم ظلنا منه بان هذا الموقع لن يتعرض للهجوم، قوس مدائن

الطوب الضخم، الأقدم في العالم، لكن قد تم قصفه في هذه الفترة وقصر آشوربانيبال في نينوى وكنيسة من القرن العاشر في الموصل. كما تم تحويل القرى القديمة الى معسكرات من قبل جنود الولايات المتحدة الامريكية. وعلاوة على ذلك، الحصار الذي شهده العراق كان مسؤولاً عن أضرار جسيمة لقطع اثرية فريدة من التراث، حيث أن ظروف التخزين السيئة بسبب عدم وجود المواد الكيميائية اللازمة لصيانة المجموعات الاثرية (ممنوع الاستيراد) ادت الى تسرب المياه الجوفية ، وتسرب الحرارة (بعد وقف تكييف الهواء)، وبالتالي تسبب ذلك في عملية تدهور لآلاف القطع الاثرية يصعب علاجها.<sup>(13)</sup>

وبمرور السنين تفاقم الوضع، فبعد احتلال العراق سنة 2003 م، أخذ الغزو أبعاداً خطيرة، فألى جانب تدمير البنية التحتية وتجويع شعب بأكمله، ازداد الوضع سوءاً ليطول المكتسبات الحضارية والثقافية إذ في ظل الفوضى العارمة التي رافقت الاحتلال، امتدت الأيدي المدسوسة لنهب المخطوطات والكتب الثمينة والنادرة من مكتبات الجامعات العراقية، وغيرها مثل المكتبة الوطنية. فقد اشار التقرير الذي اعده (Jean-Marie ARNOULT)<sup>(14)</sup> الى ان مراكز الأرشيف والمتاحف الأثرية والجامعات ومراكز البحث العلمي والمؤسسات الثقافية لم تسلم من عمليات الإتلاف والسرقة والحرق، وفقدت أو حطمت القطع الأثرية، وأتلفت الوثائق الأرشيفية الجارية والتاريخية، وقواعد البيانات العراقية وهو ما يعد خسارة فادحة يصعب تقديرها إذ معها تفقد الحضارة الإنسانية جزءاً ثميناً من ذاكرتها ومن رصيدها التاريخي والفكري.<sup>(14)</sup>

وكانت بداية النهب متحف بغداد الوطني، فقد سرقت قوات الاحتلال أكثر من مئة وسبعين ألف قطعة أصلية من آثار الحضارات التي تعاقبت على العراق منذ آلاف السنين، وتركت الذي لم تستطع سرقة هي ليسرقه الغوغاء وعصابات الجريمة المنظمة. ويضم المتحف الوطني العراقي عدداً كبيراً من أروع نماذج ما صنعت الحضارات الأولى في بلاد ما بين النهرين، فضلاً عن الألواح التي كتبت عليها شريعة حمورابي التي تعتبر أولى التشريعات القانونية التي سنّها الجنس البشري، وتشمل الطواقم الأثرية الموجودة في المتحف حلياً ذهبية لملكات آشوريات حكمن قبل أكثر من 2500 سنة<sup>(15)</sup>. كما أن المتحف العراقي هو مستودع هائل لتاريخ

العراق القديم، ومنطقة الشرق الأوسط والإنسانية جمعاء، بل إن من الصعب بناء تصور إنسانية لتاريخها بدون الميراث الهائل لبلاد الرافدين.

وما أصاب المتحف الوطني أصاب المكتبة الوطنية العراقية أيضا، فلم لم يعد في المكتبة التي تضم مخطوطات تاريخية مهمة سوى زجاج النوافذ المحطمة، بعد نهب وحرق نحو مليون طن من محتوياتها النادرة من الوثائق والمخطوطات. تعد المكتبة الوطنية من أهم المؤسسات الفكرية والثقافية في العالم العربي، كما أنها مصدر هام لتاريخ العراق الحديث. تضم المكتبة مئات الألوف من المجلدات والكتب، بعضها قد يكون النسخ الوحيدة المتوفرة في أي مكان من العالم بما في ذلك مكتبتا الكونغرس والمكتبة البريطانية. ويمكن القول إن المكتبة احتوت نسخا من الغالبية العظمى من الكتب التي طبعت ونشرت في العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى تاريخ الغزو الأمريكي 2003. إضافة إلى ذلك، احتوت المكتبة نسخا من الصحف والدوريات التي صدرت في العراق منذ بداية عصر الحياة الصحافية في عهد الوالي مدحت باشا في ستينات القرن التاسع عشر. كل هذا جعل من المكتبة الوطنية العراقية مرآة حقيقية لتاريخ العراق الفكري والاجتماعي - السياسي طوال القرنين الماضيين، ومصدرا لا يمكن الاستغناء عنه لكل الباحثين في تاريخ العراق وحاضره، عراقيون كانوا أو غير ذلك.<sup>(16)</sup>

دار الوثائق القومية العراقية هي المؤسسة الرئيسية لوثائق تاريخ العراق في العصر العثماني، عصر الاستعمار البريطاني، والعهد الملكي والجمهوري. والجدير بالذكر أن تعقيدات التاريخ السياسي العراقي، قد جعلت الدار مستودعا لساحة تاريخية واسعة تتجاوز الساحة العراقية. فقد احتوت الدار مثلا آلاف الوثائق الهامة المتعلقة بتاريخ الأشراف في الحجاز وتاريخ الأسرة الهاشمية ككل، كما وثائق تاريخ القضية الفلسطينية والسياسات العربية تجاهها خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. بل إن وثائق تاريخ العراق الملكي، بما في ذلك رسائل المسؤولين العراقيين وأوراقهم الشخصية وسجلات المراسلات الحكومية والدبلوماسية، وجدت جميعها في هذه الدار. إلى جانب ذلك، أودعت الدولة جزءا كبيرا من وثائق الحرب العراقية - الإيرانية في هذه الدار. فوق ذلك كله، ضمت الدار الآلاف من الوثائق والمطبوعات الرسمية للعهد العثماني، خاصة تلك المتعلقة بولاية بغداد.<sup>(17)</sup>

قال جيفري روبر، رئيس وحدة المراجع الإسلامية في جامعة كامبردج حينها: "إذا فقدت الممتلكات الشخصية للناس يمكن استبدالها، لكن هذه الأمور لا يمكن استبدالها. الأرشيف العراقي يحتوي على الكثير من أوائل الكتب العربية المطبوعة، والتي هي نادرة جدا وهشة للغاية، وقد نجا الكثير منها في الطبع واحد أو اثنين فقط. وقال انه نوع من الأشياء التي ظهرت في المعارض الدولية في الماضي " لقد فقدت أيضا المواد من مكتبة وزارة الأوقاف، التي تحتوي على مواد مبكرة نادرة القانونية والأدبية، التي لا تقدر بثمن المصاحف والخط.

مكتبة وزارة الأوقاف: وهي مكتبة ذات طابع خاص تضم مجموعة من نسخ القرآن الكريم تعتبر إحدى أهم وأكثر المجموعات القرآنية فرادة في العالم، كتبت بيد خطاطين مسلمين كبار ويعود بعضها إلى العصر العباسي. هذه المجموعة قد اختفت بالكامل. وليس من الواضح حتى الآن مصير الجزء الآخر من المكتبة وهو ذلك الخاص بآلاف الوثائق والمخطوطات والكتب الإسلامية، التي تغطي التاريخ الإسلامي كله من الحقبة العباسية وحتى العصر الحالي. كما أن الغموض يحيط بمصير عدد لا يحصى من إجازات العلماء المسلمين وهي مصدر لا غنى عنه لدراسة التاريخ الفكري الإسلامي حتى مطلع القرن العشرين، بما في ذلك تاريخ العلاقات بين العلماء والكتب والمناهج الفكرية السائدة في مرحلة ما بعد مراحل التاريخ الإسلامي. إضافة إلى ذلك، فإن مصير آلاف الوقفيات التي تشكل المصدر الأهم لتاريخ العراق الاقتصادي- الاجتماعي غير معروف حتى الآن<sup>(18)</sup>. كما يقول اسامة النقبشندي<sup>(19)</sup>: "بعد احتلال بغداد عثرت القوات الأمريكية على كمية من المخطوطات والكتب، من بينها لفائف جلدية لأسفار التوراة، موضوعة داخل اسطوانات من الخشب بعضها مغلفة بالفضة في أحد مخازن جهاز المخابرات السابق، فاستولت عليه ووضعها في شاحنة كبيرة مكيفة، وتم الكشف عليها من قبل خبراء دار المخطوطات والمتحف العراقي، فقدم تقرير إلى هيئة الآثار بأنها مواد تراثية يشملها قانون الآثار النافذ، ويجب أن تسلم إلى هيئة الآثار والتراث. إلا أن ممثل البنتاجون الدكتور إسماعيل حجارة (وهو أمريكي الجنسية أرسل من أمريكا للإشراف على هيئة الآثار والتراث) كان وراء نقلها إلى أمريكا، فحاولت إقناعه بعدم الموافقة؛ لأن إسرائيل تسعى للاستحواذ على الأسفار اليهودية منذ السبعينيات،

وهي بأقلام مشاهير الخطاطين اليهود في بغداد وعمرها يزيد على (150) عاما فلم يكثر، وقبل أن يتخذ أي إجراء نقلت هذه المجموعة خلسة إلى نيويورك". (19)



This 1793 Babylonian Talmud was one of several sacred Jewish texts that was recovered from the basement of Saddam Hussein's intelligence headquarters in 2003. The items were rescued and brought to the U.S. to be restored. Photo by U.S. National Archives

هذه مخطوطة لعام 1793 التلمود البابلي واحدة من بين عدة نصوص اليهودية مقدسة التي كانت موجودة في مركز صدام في الطابق السفلي حتى عام 2003. تم نقلها إلى الولايات المتحدة لاستعادتها. (20)

أما أرشيف الإذاعة والتلفزيون العراقي: فهو أرشيف لا يقل أهمية من الناحية التاريخية والثقافية عن المراكز الأربعة المذكورة أعلاه، فقد بدأت الإذاعة العراقية البث منذ الثلاثينات بينما أسس التلفزيون العراقي في الخمسينات من القرن العشرين. يضم هذا الأرشيف عددا لا يحصى من الاسطوانات والأشرطة والملفات التي تحتوي مواد موسيقية وغنائية، برامج ومواد وتسجيلات لمحطات هامة وبارزة في تاريخ العراق الحديث. بعض التسجيلات الخاصة بقيادات العراق السياسية منذ الملك غازي وحتى صدام حسين هي تسجيلات ذات أهمية تاريخية لا تقدر، و لبعض الآخر من التسجيلات الفنية والموسيقية يعتبر إرثا جميعا للعراقيين والعرب والعالم. (21)

من المراكز المهمة التي دمرت اثناء احتلال الولايات المتحدة للعراق مركز صدام للفنون: وهو المركز الذي ضم مقتنيات الدولة العراقية من الأعمال الفنية التشكيلية خلال قرن بأكمله، ويعد مركز الفنون الذي تأسس عام 1986 من أكبر الصروح الثقافية في العراق، حيث كان يتم فيه استقبال المهرجانات الفنية العالمية والمعارض التشكيلية المحلية والعالمية فضلا عن كونه متحفا يضم لوحات

نادرة لكبار الفنانين في العراق تعود لحقب مختلفة، وتتخذها اليوم وزارة الثقافة العراقية مقرا لها، بينما فقد بريقه الفني في مجالات الرسم والنحت والخزف. ووفق وكالة الأنباء الألمانية، كان المركز يضم قبل عام 2003 حوالي 8000 لوحة فنية لرواد الفن العراقي وفنانين معاصرين لكن في أحداث السلب والنهب والسرققات التي رافقت سقوط حقبة الرئيس العراقي الراحل صدام حسين في إبريل عام 2003، أدت إلى سرقة واتلاف حوالي 7000 لوحة، ولا يزيد عدد اللوحات الموجودة به حاليا على 1900 لوحة.<sup>(22)</sup>

من المكتبات الجامعية العراقية التي شهدت هي الاخرى الدمار والتخريب - مكتبة جامعة الموصل: وهي المكتبة الرئيسية في مدينة الموصل، المدينة التي تعتبر وعاء تاريخيا للميراث العربي - الإسلامي. وتضم المكتبة، إضافة إلى آلاف الكتب الضرورية لأي جامعة حديثة، آلاف أخرى من المخطوطات العربية - الإسلامية وعددا هائلا من الوثائق التاريخية الخاصة بتاريخ المدينة والعراق منذ العهد العثماني وحتى الآن. وفي حين تؤكد تعرض المكتبة للسلب والنهب طوال يومين على الأقل، فمن غير الواضح حتى الآن حجم الخسائر التي انتابتها.<sup>(23)</sup> في الأخير قال بعض الأكاديميين الدوليين آنذاك أن حرق المكتبة الوطنية في العراق هو "خسارة مدمرة" وهو ما يعادل فقدان المكتبة البريطانية. وأضافوا أن فشل الجيش الأمريكي لمنع كارثة ويجب التحقيق لمنع حدوث ذلك مرة أخرى. ويصف الدكتور (Riedlmayer)<sup>(4)</sup> فشل القوات الأمريكية لمنع عمليات السلب والنهب باسم "مخز تماما"، قائلا انها انتهكت سلسلة كاملة من الاتفاقيات الدولية لقواعد الحرب في العراق<sup>(24)</sup>.

### 3- دور المنظمات الدولية في حماية الممتلكات الثقافية والتاريخية:

إن فقهاء القانون الدولي الإنساني يجسدون جوهر الجريمة في: الإبادة الجسدية وتعني الاعتداء على الحياة وسلامة الجسم. الإبادة البيولوجية وتتمثل في الحيلولة دون نمو الجماعة البشرية نموا طبيعيا، وفي إعاقة التناسل. الإبادة الثقافية والفكرية وتتمثل في عزل المجتمع عن باقي المجتمعات في العالم.

لقد أدرك المجتمع الدولي أهمية الثقافة في حياة البشر، باعتبارها جسرا ممتدا بين الأمم والشعوب، مهما تباينت في اختياراتها السياسية والاجتماعية وفي

أنماط الحياة وأساليبها. لهذا أصبحت حماية الممتلكات الثقافية موضع اهتمام المحافل الدولية ومنظمات المجتمع المدني، نظرا لما تمثله هذه الأعيان من قيمة ثقافية وروحية كبيرة تشترك فيها الإنسانية جمعاء. وتعد موروثا حضاريا للبشرية على مر العصور. فكان من نتائج هذا الاهتمام إقرار العديد من الاتفاقيات الدولية التي غرضها حماية الممتلكات الثقافية أثناء النزاع المسلح الدولي والغير الدولي. نذكر منها:

- اتفاقية جنيف لعام 1949 وملحقها سنة 1977.
- اتفاقية لاهاي لعام 1954 والبروتوكولين الملحقين بها الأول لعام 1954 والثاني لعام 1999.
- اتفاقية اليونسكو لعام 1970 المتعلقة بالتدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بوسائل غير مشروعة.
- اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لعام 1972
- الاتفاقية الدولية لاسترجاع الممتلكات الثقافية المسروقة أو المصدرة بطرق غير مشروعة لعام 1995.
- اتفاقية حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه لعام 2001
- اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي لعام 2003
- اتفاقية حماية وتعزيز وتنوع اشكال التعبير الثقافي لعام 2005  
كما تتعاون في الوقت الحاضر ومنذ سنوات منظمات دولية عديدة لحماية عموم الممتلكات الثقافية للشعوب اهمها:
- المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) ومقرها باريس
- المنظمة العالمية لحماية الملكية الفكرية (الويبو) ومقرها جنيف
- منظمة الشرطة الجنائية الدولية (الانتربول) ومقرها باريس
- المنظمة الاسلامية والثقافة والعلوم (الايسيسكو) ومقرها الرباط
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليسكو) ومقرها القاهرة

فكانت اتفاقية لاهاي الخاصة بالحرب البرية لعام 1907 أولاً، ثم تعززت باتفاقية 1954 وبرتوكولها الأول الذي أرسى دعائم تنظيم قانون دولي يحمي الممتلكات الثقافية على نحو متكامل. وفي العام 1999 اكتملت تلك الاتفاقية بالبروتوكول الثاني لاتفاقية لاهاي لتعزيز حماية هذه الأعيان، فجاءت بنص واضح ومفصل يعرف الممتلكات الثقافية في المادة الأولى " يقصد من الممتلكات الثقافية، بموجب هذه الاتفاقية، مهما كان أصلها أو مالكيها ما يأتي:

(أ) الممتلكات المنقولة أو الثابتة ذات الأهمية الكبرى لتراث الشعوب الثقافي كالمباني المعمارية أو الفنية منها أو التاريخية، الديني منها أو الدنيوي، والأماكن الأثرية، ومجموعات المباني التي تكتسب بتجمعها قيمة تاريخية أو فنية، والمتحف الفنية والمخطوطات والكتب والأشياء الأخرى ذات القيمة الفنية التاريخية والأثرية، وكذلك المجموعات العلمية ومجموعات الكتب الهامة والمحفوظات ومنسوخات الممتلكات السابق ذكرها.

تعد اليونسكو الجهة الوحيدة على الساحة التي تستطيع عمل شيء إزاء ما حدث فيمكنها مناشدة المكتبات في العالم ألا تقبل أيًا من المخطوطات أو الكتب التي خرجت من بغداد سواء قبل الحرب أو بعدها كما عليها أن ترمم ما تلف من المخطوطات خلال الحرب ويمكنها أن تقوم بحملة نداء خارج العراق وداخله لاسترجاع ما فقد من التراث الثقافي والمتحف الأثرية ولو بمقابل مادي.

كذلك من الممكن أن يكون هناك تحرك عربي يتم من خلاله تفعيل دور المؤسسات العربية سواء كانت حكومية أو خاصة، وقد يمكن ذلك من خلال عدة خطوات على سبيل المثال:

- التفكير في تدابير مناسبة لتوفير مقومات الصيانة المناسبة للتراث الذي أضرير خلال الحرب.

- أن تقوم المنظمات والجهات المعنية بحملات للمشاركة ترميم وصيانة هذا التراث.

- أن تتم مقاطعة مكتبة الكونجرس والمكتبة البريطانية وأي مكتبة أخرى إذا تبين يوماً ما أنها اقتنت أيًا مما نهب من التراث العراقي على أن تتم محاكمتها أخلاقياً ومهنيًا.

- توجيه الدعوة على الصعيد العالمي للمجتمعات والجمعيات المناظرة أن تحذو  
حدو المجتمع العربي الاسلامى في مقاطعة المكتبات الأمريكية والبريطانية التي يثبت  
بحقها أنها اقتنت مواد مسروقة من مكتبات العراق.

إن ما حدث وما زال يحدث الآن ليس سوى عملية تجريد شعب يملك حضارة  
عريقة من تلك الحضارة ومحاولة طمس هويته وثقافته بوحشية وهمجية فاقت  
كل حد.

#### خاتمة:

تدمير المكتبات يعد من بين أهم الكوارث التي واجهت الحضارة العربية  
الإسلامية منذ تاريخها الطويل وحتى يومنا هذا. وأنها سبب رئيسي لتخلف الأمم  
عن التقدم العلمي وسر ضعفها، وجعلها عرضة للمستعمر الأجنبي. ان المتتبع لبناء  
الحضارات في العالم قديما وحديثا، يجد أن تأسيس المكتبات واحترام الكتب  
والمحافظة عليها وتبجيل العلماء والكتاب هو سر تطور الحضارات في العالم. فقد  
بنيت على اساسها الحضارات في البلدان شرقا وغربا كالحضارة العباسية  
والفاطمية والأندلسية، إلا أنها أخذت في الأفول بمجرد القضاء على المكتبات  
وحرقت الكتب ومضايقة الأدباء والعلماء والمفكرين. إن الكتاب في الوطن العربي  
واجهوا عبر العصور المختلفة تحديات كبيرة تمثلت في تدمير الكتب والمكتبات  
وملاحقة بعض مؤلفي الكتب ومضايقتهم بل وحتى قتلهم. فقد تعددت أسباب  
تدمير المكتبات والكتب. حيث هناك أسباب شخصية بحتة، وأخرى تمثلت في  
الخوف من اقتناء الكتب باعتبارها محرمة وممنوعة بخاصة كتب الفلسفة  
والكتب العلمية. وهناك أسباب أخرى مصدرها الحقد والتعصب الأعمى والجهل  
القاتل، فضلا عن غزو البلدان العربية واحتلالها من قبل المستعمر الأجنبي وتدمير  
مكتباتها وحرقت ما فيها من كتب، وهذا ما وقع في العراق الذي اخذ كان نموذج  
لتدمير المكتبات في وقتنا الحالي.

كثيرا ما تستخدم مصطلحات "الممتلكات الثقافية" و"التراث الثقافي"،  
و"السلع" و"القطع" الثقافية كمرادفات. لكن في الواقع لا يوجد تعريف عالمي لأي  
منها، فكل دولة تعرف هذه المصطلحات حسب قوانينها وتشريعاتها، ولغرض  
مكافحة الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية، تم الآن توحيد تعريف  
"الممتلكات الثقافية" لدى الدول الاطراف في اتفاقية اليونسكو لعام 1970،

بشأن التدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة، واتفاقية المعهد الدولي لتوحيد القانون الدولي الخاص (يونيدروا) بشأن الممتلكات الثقافية المسروقة أو المصدرة بطرق غير مشروعة. وتعرف هاتان الاتفاقيتان الدوليتان الممتلكات الثقافية أو القطع الثقافية على أنها "ممتلكات تتسم لاعتبارات دينية أو علمانية، بالأهمية بالنسبة لعلم الآثار، أو ما قبل التاريخ، أو التاريخ أو الأدب أو الفن أو العلم. والتي تندرج في إحدى الفئات المذكورة على وجه التحديد في الاتفاقيتين" (25).

وضع القانون الدولي العديد من الأحكام المتعلقة لحماية الممتلكات الثقافية، وكان القانون الدولي الإنساني أول من كفل إجراءات الحماية للممتلكات الثقافية، كما تقرر أيضا حماية الأماكن التاريخية والدينية والفنية والعلمية، لما لها من أهمية تاريخية وروحية للأمم وللشعوب، لكن وللأسف ومن خلال ملاحظة سلوك وتصرفات قوات الاحتلال في العراق نجد أنها خالفت العديد من أحكام القانون الدولي الإنساني. فلقد حمت القوات الأمريكية وزارة الدفاع ووزارة النفط لكن السؤال الذي يجب طرحه: لماذا تخلت عن المكتبة الوطنية العراقية والمتحف العراقي وبقية المراكز الثقافية المهمة في العراق؟

### الهوامش:

\*الذين يقومون بتدمير الكتب لهم تسمية خاصة متلفوا الكتب (biblioclastes). هؤلاء ليسوا بالضرورة اميين وحاقدين على الكتب والمكتبات فالتاريخ يشير الى غوبلز، القارئ النهم للكلاسيكيات اليونانية (وكارل ماركس)، وكان المعرض على تدمير كبير للكتب. في فرنسا نفسها، التي هي مهد للحرية والثقافة، وكانت مسرحا لعدد لا يحصى من احرق الكتب.

1) ناصر الحزبي، حرق الكتب في التراث العربي الاسلامي، منشورات الجمل متوفر على

[www.ebooks4islam.com/2014/07/pdf\\_4494.html](http://www.ebooks4islam.com/2014/07/pdf_4494.html) تم الاطلاع عليه 2016/03/13

2) Lucien X. Polastron, Livres en feu: histoire de la destruction sans fin des bibliothèques, Lucien X. POLASTRON, 2004, p 20

3) Jean- louis de Montesquiou, L'ebook et les biblioclastes. Disponible sur: <http://www.books.fr/lavenir-radieux-de-la-lecture-lebook-et-les-biblioclastes/>, consulté 12/03/2016

\*ويقول أيضا أن "الحق إن مما يوجب إعادة النظر في مسألة إتلاف مكتبة الإسكندرية على يدي عمرو بن العاص بإذن من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أن روايتها أتت من المؤرخين العرب المتأخرين بحوالي ستة قرون عن فتح مصر سنة 642م، مثلما هو شأن ابن القفطي والملطي والبغدادى والمقرئى وكلهم من القرن الثالث عشر ميلادى. نقل بعضهم عن بعض دون مساءلة أو تحقيق وتبعهم في ذلك بعض المفكرين المحدثين مثل دالامبير وديدرو المشرفين على تأليف الموسوعة الفرنسية في القرن الثامن عشر ثم هيغل وتوينبي، وإن بكثير من التحفظ. فهبغل يورد "المسألة" على أنها "إشاعة" مشيرا إلى ما تلتئم عليه من تناقض مع ما تؤكد من عناية المسلمين "بالفنون والعلوم ونشرها في كل مكان.

4) منصور سرحان، حرق الكتب وتدمير الكتب عبر التاريخ، متوفر على:

- \* المصادر التاريخية تشير إلى أن عدد الكتب التي احتوتها بلغ زهاء 10400 كتاب، من بينها مائة مصحف بخط ابن مقلة. ومن بين المترجمين عليها أبو العلاء المعري، وجاء ذكر المكتبة تحت اسم «دار العلم» على لسانه في "سقط الزند": «أخازن دار العلم كم من تنوفة أتت دوننا فيها العواطف واللغظ».
- \* تمكن طغرل بك من الاستيلاء على نيسابور عام 432، وعلى جرجان وطبرستان عام 433، كما ضم إليه في العام نفسه كرمان وبلاد الديلم، كان ملك على السلاجقة، ولم يكن له أولاد.
- (5) انظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج. 6، ص. 212-213. متوفر على: [https://books.google.dz/books?id=ig9\\_LY6eVboC](https://books.google.dz/books?id=ig9_LY6eVboC) تم الاطلاع عليه في 2016/03/12.
- \* الذي حكم الدولة الإسلامية من سنة 149هـ إلى سنة 193 هـ
- (6) عبد التواب شرف الدين، المدخل إلى المكتبات والعلوم، القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، 2001، ص. 17.
- انظر أيضا لى زكي حنظل، النظام المكتبي في العصر العباسي: النشأة والتطور، عمان: دار السواقي العلمية للنشر، 2013، ص. 36-39 حيث تنطرق المؤلفة للمكتبات في العصر عبيسي ودورها في إثراء الحياة الثقافية في ذلك العصر، فقد كانت المكتبة منتدى للعلماء وقاعة بحث للدارسين من مختلف بقاع العالم.
- (7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج. 10، بيروت: دار صادر، [د.ت.]، ص. 213
- \* التي كان الديوان يدين بها لهما ورغم ان حصة ابي الفرج خمسة آلاف دينار إلا انه أخذ ما يساوي المائة ألف دينار ونهبت من داره بعد أقل من شهر عندما فر الوزير يوم انهزام ناصر الدولة ابن حمدان وذهبت أغلب هذه الكتب إلى عماد الدولة ابن المحرق بالإسكندرية، وبعد مقتله انتقلت للمغرب بالإضافة إلى ما استولت عليه قبيلة لواته الذين عاشوا بدوا على الطرف الغربي لدلتا النيل (ليبيا اليوم).
- (8) محمد، آل زايد، تدمير المكتبات الفاطمية، متوفر على:
- <http://www.okhdood.com/?act=artc&id=192> تم الاطلاع عليه 2016/03/04
- انظر أيضا فادي عبد الحميد، المرجع في علم المكتبات، عمان: دار اسامة للنشر والتوزيع، 2006، ص. 25 - 28 حيث تعرض المؤلف للمكتبات في عهد الفاطميين ومادته من دور في نشر تعاليم الإسلام وقيمه.
- (9) زهراء محسن محسن، حرق خزانة الكتب في التاريخ الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، متوفر على: [http://www.uokufa.edu.iq/journals/index.php/kufa\\_arts/article/view/3679](http://www.uokufa.edu.iq/journals/index.php/kufa_arts/article/view/3679) تم الاطلاع عليه في 2016/03/25.
- \* بارتولومي دي لاس كاساس) بالإسبانية: (Bartolomé de las Casas) أسقف إسباني (1474-1566)، كان لفترة من الوقت أسقفا على تشياباس في المكسيك، وهو معروف بلقب رسول الهند،
- \* الكومونة Commune تعبير مختلف الدلالات، فهو في أوروبا اللاتينية يطلق على أصغر وحدة في التقسيم الإداري. وفي روسيا القيصرية كانت الكومونة عبارة عن استثمار زراعية جماعية تضم عددا من الفلاحين تقوم على الملكية المشتركة وتوفر فيها الحاجيات والخدمات الحياتية على نحو مشترك. وهي عبارة عن شكل من أشكال الإدارة الذاتية في مدن أوروبا الغربية في القرون الوسطى. بعد انتفاضة العمال المسلحة في باريس عام 1871، فُتُن تعبير الكومونة بثورة العمال في باريس وأصبحت التسمية كومونة باريس. في 18 آذار/مارس 1871 استولت اللجان الثورية للكومونة على السلطة وحلت محل بلدية باريس في الثورة الفرنسية ثم شكلت حكومة باريس الاشتراكية، سقطت بذلك الحكومة البورجوازية.
- تعد كومونة باريس التي لم تعمر أكثر من 70 يوما (من 18 مارس حتى 27 ماي 1871) ظاهرة فريدة في التاريخ فهي استمرار للحركات العمالية في أوروبا 1830-1848 من ناحية، ومبشر يعلن عن الثورات الكبرى في القرن العشرين وخاصة الثورة الاشتراكية في روسيا عام 1917، من ناحية ثانية.
- انظر الموسوعة العربية. متوفرة على: <http://www.arab-ency.com/> تم الاطلاع عليها في 2016/03/12.
- (10) مرجع سبق ذكره، وهو مرجع مهم به تاريخ تدمير المكتبات عبر كل العصور والأزمنة وفي كل الحضارات التي شهدها العالم.

- Florence Quinche, *Quelle éthique pour la littérature?: pratiques et déontologies*, (11 Genève: Labor et Fides, 2007, p165
- (12) إحراق مكتبة جامعة الجزائر: "جريمة بربرية شنعاء" متوفر على: <http://www.aps.dz/ar/algerie/16766>. تم الاطلاع عليه: في 2016/02/12.
- (13) *Joëlle Pénochet*, L'une des plus grandes catastrophes culturelles de tous les temps. Disponible sur: <https://mcanoblog.wordpress.com/2010/05/04/vandalisme-et-pillage-en-irak-berceau-de-la-civilisation/> consulté le 16/03/2016
- \*مفتش عام للمكتبات بفرنسا عام 2003.
- (14) Bibliothèques irakiennes: vues d'ensemble (juillet 2003). Disponible sur: [cfi.ifla.free.fr/archives/conferences/berlin/irakarnoultcorps.htm](http://cfi.ifla.free.fr/archives/conferences/berlin/irakarnoultcorps.htm). consulté le 10/03/2016.
- (15) Assemblée parlementaire du Conseil de l'Europe, , Compte rendu des débats ,session ordinaire de 2003, (quatrième partie) , 25 sept. – 2 Oct.2003 , Tome IV, Séances 24-33, p.1105.
- (16) علي الكاش. المكتبة الوطنية في مهيب الريح. فصل محزن من قصة تدمير ذاكرة العراق الوطنية. متوفر على: [www.sotaliraq.com](http://www.sotaliraq.com). تم الاطلاع عليه في 2016/02/15.
- (17) بشير خزعل. في دار الكتب.. وثائق الدولة العراقية في مخازن انتهت صلاحيتها منذ 18 عاما متوفر على: <http://www.alsabaah.iq/ArticleShow.aspx?ID=97004>. تم الاطلاع عليه 2016/03/21.
- (18) سهيلة شهاب الدين، مكتبات جامعات العراق: التتار يعودون. متوفر على: [www.alrabita.info/forum/archive/index.php/t-8924.html](http://www.alrabita.info/forum/archive/index.php/t-8924.html) تم الاطلاع عليه في 2016/02/09
- \* خبير المخطوطات في العراق ومدير عام دار المخطوطات العراقية منذ تأسيسها من 1988 حتى 2004
- (19) اسامة الننقشبندي، استهداف المخطوطات في العراق خلال الحرب (1991، 2003)، متوفر على: <http://www.alriyadh.com/292637> تم الاطلاع عليه: 2016/02/09
- (20) صور من الأرشيف الوطني الأمريكي
- (21) جريمة سرقة مكتبة إذاعة بغداد!. متوفر على <http://alzawraapaper.com>. تم الاطلاع عليه 2016/04/04.
- (22) العراق يعاني أكبر عمليات سرقة لآثاره منذ 2003. متوفر على: <http://www.moheet.com/2015/05/02/2257943>. تم الاطلاع عليه: 2016/04/04.
- (23) بشير موسى نافع، أولى خطوات التحرير الأمريكي: تدمير ذاكرة العراق التاريخية. متاح على: <http://www.alrabnews.com/alshaab/gif/25-04-2003/a29.htm> تم الاطلاع عليه: 2016/03/25
- \* Andreas Riedlmayer, an Islamic art and architecture specialist from Harvard
- (24) Andrew Gumbell, Inquiry demanded over US failure to stop library looting, 15avril 2003 disponible sur: <http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/inquiry-demanded-over-us-failure-to-stop-library-looting-115361.html>. consulté le 20/03/2016.
- (25) اليونسكو، التدابير القانونية والعملية لمكافحة الاتجار غير المشروع بالمتعلقات الثقافية: دليل اليونسكو، متوفر على: [www.unesco.org/.../culture/.../illicit-trafficking-of-cul](http://www.unesco.org/.../culture/.../illicit-trafficking-of-cul) تم الاطلاع عليه في 2016/03/24